نشأة اللغة

التوقيف الإلهي:

تقوم هذه النظرية على فكرة أن نشأة اللغة إنما حدثت بتلقين إلهي لآدم عليه السلام. من الفلاسفة اليونان القائلين بها (هيراكليت)، ومن علماء اللغة نجد أحمد ابن فارس الذي خصص لها بابا في كتابه الصاحبي في فقه اللغة بقوله:"القول على لغة العرب أتوقيف أم اصطلاح.أقول فيه: إن لغة العرب توقيف".

من الفرق الإسلامية نجد الأشاعرة التي ترى أن الواضع هو الله تعالى" وهو قول أبي الحسن الأشعري وبعض أتباعه كابن فورك أنها توقيفية، وان الواضع هو الله تعالى وحده ،وأعلمها للخلق بالوحي إلى الأنبياء أو بخلق الأصوات في كل شيء أو بخلق علم ضروري لهم. وقد احتج أهل القول والتوقيف بالمنقول والمعقول.

الأدلة النقلية: فمن ثلاثة أوجه:

الأول: قوله سبحانه:﴿**وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ ان كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ**﴾ سورة البقرة :الآية 31. دل هذا على أن الأسماء توقيفية ،وإذا ثبت ذلك في الأسماء ثبتت –أيضا – في الأفعال والحروف إذ لا قائل بالفرق.

الثاني: أن الله سبحانه ذم قوما على تسميتهم بعض الأشياء من دون توقيف بقوله:﴿**إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٌ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ**﴾ سورة النجم :الآية22. فلو لم تكن اللغة توقيفية لما صح هذا الذم.

الوجه الثالث: قوله سبحانه:﴿**وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ**﴾ سورة الروم الآية22. والمراد اختلاف اللغات لا اختلاف الألسن.

الأدلة العقلية: فمن وجهين :

الأول: أن الاصطلاح إنما يكون بأن يعرف كل واحد منهم صاحبه ما في ضميره ،وذلك لا يعرف إلا بطريق كالألفاظ والكتابة، وكيفما كان فإن ذلك الطريق إما الاصطلاح ويلزم التسلسل ،أو التوفيق وهو المطلوب .

الثاني: أنها لو كانت بالمواضعة لجوز العقل اختلافها وإنها على غير ما كانت عليه ،لأن اللغات قد تبدلت وحينئذ لا يوثق بها" اتضح أن أهل التوقيف ارتكزوا على أدلة نقلية من القرآن الكريم وقدّموها بتأويلات تتوافق ومذهبهم الإعتقادي الرامي إلى أن الله عز وجل علم آدم كل ما يحتاجه في أمره كله.

الأسماء التي علمها الله آدم وقع اختلاف حيث "اختلفوا في أي الأسماء علم الله آدم ؟فقيل :جميع المخلوقات حقيرها وجليلها ، وقيل أسماء الأجناس، وقيل علم الأسماء بكل لغة تكلمت بها ذريته .....وقال أكثر العلماء : علمه منافع كل شيء وما يصلح".

الاصطلاح والتواضع:

أخذت فكرة نشأة اللغة في التراث العربي حيزا كبيرا لدى علمائه من مفسرين وأصوليين ولغويين ومتكلمين حيث لم تنل فكرة أو قضية نصيبا أكبر مثل ما نالته هذه القضية.؛ المتمعن جيدا في كتب أولئك العلماء يجد أن جل ما دار من حوارات ومناقشات حول القضية تراوح بين فكرة التوقيف الإلهي و المواضعة و الإصطلاح.

تقوم نظرية إلى فكرة أن اللغة هي من صنع الإنسان، وذلك بالتواضع والاتفاق والاصطلاح على ألفاظها ومدلولاتها، فاللغة اصطلاحية "أي أن الناس هم الذين اصطلحوا على إطلاق الأسماء على المسميات، ومعنى هذا بلغة علماء الاجتماع في العصر الحديث أن اللغة قد تنشأ نشأة اجتماعية صرفة".

من أصحابها الفيلسوف اليوناني (ديموكريت)، ومن القائلين بها في العصر الحديث نجد الفيلسوف الإنجليزي (آدم سميث). أما في التراث العربي نجد ابن جني الذي ذكر في كتابه الخصائص "أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح، لا وحي وتوقيف"، ثم وردت إشارة عابرة لدى ابن جني في خصائصه مفادها" أن الأخفش الأوسط (ت 210هـ) كان أميل إلى كلا الرأيين"،

طرحت الفكرة ردود مختلفة وعلى مرّ العصور خاصة عند اليونان باعتبار المنطق اليوناني كان له أثر كبير في الثقافة العربية الإسلامية، باعتبار أن الإغريق قد أثاروا فكرة نشأة اللغة وأدى الأمر بهم إلى الانقسام إلى فريقين: "الطبيعيون naturalists، والاصطلاحيون conventionists .

1/ يرى الفريق الأول وعلى رأسه أفلاطون أن اللغة من صنع الطبيعة أي أنها انحدرت من أصل تحكمه قوانين خالدة غير قابلة للتغيير.

2/ الفريق الثاني الذي يتزعمه أرسطو فيؤكد أن اللغة من قبيل الاصطلاح وأنها وليدة العرف والتقليد"

بالإضافة إلى مدرسة الرواقيين الذين "كانوا يعتقدون أن الأسلوب القويم يتمثل في الحياة بانسجام مع الطبيعة ،وأن المعرفة تكمن في انسجام الأفكار مع الأشياء الطبيعية الموجودة في الطبيعة،وأن هذه الأفكار ما هي إلا صور في حد ذاتها"[1] .كل هذا كان الإمام على إطلاع عليه بحيث ترك أثرا على فكره.

نظرية محاكاة أصوات الطبيعة: تقوم هذه النظرية على أن اللغة نشأت في الأساس تقليدا لأصوات الطبيعة: مظاهرها، وحيواناتها، والأصوات التي تحدثها الأفعال عند وقوعها كصوت القطع، والكسر، والضرب...الخ. يرى القائلون بها أن الإنسان بدأ مسيرته اللغوية بمحاكاة أصوات الطبيعة المعبرة عن الانفعالات كالحزن، والفرح ومحاكاة أصوات الحيوانات، ومظاهر الطبيعة كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير المياه....الخ.

النظرية لها سند في التراث العربي فهذا ابن جني قال بها في قوله:"باب إمساس الألفاظ أشباه المعاني.قال: اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له، والاعتراف بصحته". في العصر الحديث نجد من اللغويين د. صبحي الصالح الذي يقول:"زنحن لا نحتاج ’لى كبير عناء، حتى نلمح العلاقة الطبيعية بين الألفاظ الموضوعة لمحاكاة الألفاظ التي تصدر من الحيوانات..."

مراجع المحاضرة:

إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ،للإمام الشوكاني،دار ابن حزم،بيروت،لبنان،ط1.

البحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي .

اللسانيات النشأة والتطور،أحمد مومن.

فقه اللغة، مناهله ومسائله، محمد أسعد النادري.